قضايا الأدب والأدباء

لماذا اتهم ثقافتنا المعاصرة ؟

بقلم : محيي الدين اسماعيل

لماذا اتهم ثقافتنا المعاصرة ؟

سؤال لا بد أن اجيب عنه ، وان اتلو بعض ما في صحيفة الاتهام.

لقد عاشت ثقافتنا المعاصرة هذه العقود من السنين الفائتة في تبعية وخنوع ، ومثلت دورا مخادعا بحماس مفتعل ، ذليلا ولكن بادعاء. نقلت اشكالا وانماطا من الصور المتناقضة المتضادة ، ولكن جميعها كانت دون مستوى تاريخنا ، ودون مستوى اشواق الانسان العادي فينا وآماله واحلامه ، ودون ان تهبه شيئا مذكورا ، وبذلك عجزت عن اداء اهم رسالة لها ، واعني بها ان ترفع معنى الوجود في حياتنا ، وأن تلهب محفزات التعبير من هذا المعنى .. ان تجعلنا ، على الدوام ، طليعة تاريخ المستقبل .

كانت ثقافتنا المعاصرة ، بالرغم من كل ما تنطوي عليه من نقائص مركبات النقص ، مرحلة فيها عنصر الضرورة ، ولكن كان لا بد لها ان تنتهي وتقهر وتخلي السبيل لمستوى روحي ارفع ، بعد ان اثبتت سقوطها فادانت نفسها ، من خلال التهريج والضجيج والعجز عن العطاء والهزيمة والعقم . كان لا بد لها ان تنتهي بانتهاء مهرجاناتها النزقة الثرثارة ، التي مثلت فيها دور المهرج الابله ، فقدمت اعمق احساس بالذنب لجميع الصادقين مع انفسهم ومع تاريخهم ومع العالم ، ولكل روح ورع يحاول أن يرتفع فوق غثاثة الالفاظ الفارغة المنفرة الخلو من اي تساؤل حقيقي عن المعاني الكبرى .

ان المثقف العربي ، اديبا ومفكرا ، لم يبحث ، حتى في قمة عهود التوتر والمحن والآلام ، عن نفسه وعن تاريخه ، بقدر ما كان يبحث عن كل ما هو ضد نفسه وضد تاريخه . لقد عاش دوما وراء الحواجز والسدود التي تفصل بين نفسه ونفسه ، وبين نفسه وتاريخه . لقد عاش كل ماساة مركبات النقص ، وكل ماساة التناقض بأحد اشكالها واعنفها . وهكذا عجزت هذه الثقافة ، بكل صورها ، ان تأخذ تلك الصورة السقراطية الجليلة ، صورة الحياة الحية حقا في السوق دون ان تبتذل ، صورة الامتداد الى الارض والامتداد نحو النور . انها لم تستطع ان تعيش في نفوس الناس ، بل على العكس من ذلك ، بدأت من خلال تناقضاتها مع الواقع تعتزل الواقع والتاريخ باصرار وعناد ، وترتد الى الظلمة وتنسحب من السوق اطلاقا ، حتى بدأنا نحس رويدا رويدا بتقهقر مريع في صورة عليا من صور الثقافة ، ونعني به الادب. فشهدنا في الآونة الاخيرة ، ان الكثير من ادبائنا لم يعد يكتب للناس، بل لبعضه بعضا ، ودون أن تكون بين الجميع صيغة واحدة للتفاهم . وان جميع ادبائنا لم يستطيعوا بعد استفحال تناقضاتهم ، مع الواقع والتاريخ ، ان يخلقوا نموذجا واحدا يقدم لنا معنى المعضلات التي يحياها الانسان العادي ، الانسان البسيط ، في عالمنا نحن .

لقد خلق ادباؤنا نماذج وانماطا عدة ، ولكنها جميعا كانت مدلسة، قدموها من خلال تملق الصغار الصدر عن مركبات النقص ، ومن غير تشوف وتلهف للمصدر الينبوع الاصيل . وحتى اولئك من القلة القليلة النادرة الواعدة التي وشمت مطلع هذه الحركة قبل أن تجترح اثم الزيف الاكبر ، وتصر عليه ، قد فقدت اصالتها وارتدت اخيرا ، ففقدت هي الاخرى توازنها على الارض التي هي فيها ، لانها فقدت روح المغامرة والفتح والكشف عن آفاق المصير .

ومن هنا ولاول مرة في تاريخنا ، لم يعد ادبنا تاريخا لوجودنا ولا تعبيرا عن ارادة هذا الوجود ، بل محض تمزق من التناقضات ، وتضاءلت المكابدة والمعاناة والتجربة عندنا ، فانتقل الادب الى التجربة، وانقطع حبل السرة ما بينه وبين رحم الارض ورحم التاريخ لا ليولد شيء جديد ، ولكن ليولد كل ما هو ميت او مرشح للموت والاندثار .

لقد اختنق واندثر ذلك الصوت الذي ورثناه نحن سلالة المنشدين ، ومثقفنا قبل غيره قد فقد الاحساس بالجوع العظيم،وتحلل الكون في ناظريه فعاد بلا معنى ، وبلا مغزى ، وبلا هدف .

لقد اصابنا الخرس الفاجع ، والخرس الفاجع انكى عقبى من كل ما اصابنا في قضيتنا الكبرى : تكون او لا تكون . لقد فقدنا خصائص الذات ، وتحول كل شيء في الحركة الكونية الى قدر اعمى امامنا ، ففقدنا الاحساس بالابعاد ، زمانا ومكانا ، أرضا وسماء .

منذ اجيال ، وخصيصتنا الكبرى التي نتوه بها على العالم ، اننا نتحدى الحياة والكون بالنشيد ، فحضارتنا حضارة الابجدية ، حضارة الحرف . ولكن أبجديتنا قد تنافرت والتهمتها متاهات الرمل ، وحرفنا استحال الى صمت . كل ذلك على يد مثقفنا ، اديبا ومفكرا .

ان مثقفنا لم يمارس الالتزام ازاء الواقع والتاريخ ، بل تحدث عن الالتزام كثيرا ، لانه سمع ان اناسا آخرين في عالم آخر قد تحدثوا عن الالتزام ، فبقي الالتزام ، بالنسبة اليه شيئا مضافا من الخارج ، ولم يكن قيمة انسانية ، بل كان فنا من فنون الاتكاء على مقاهي الارصفة ، فظل السوق ، في وجدان المثقف العربي سوقا عاديا جاهلا لا ينطوي على اي معنى انساني سقراطي .

الالتزام الحق هو ان نعانق العالم ، وان نحمل عنه جميع همومه واكداره ، وان نستشعر المسؤولية عن هاتيك الهموم والاكدار ، من اجل أن يرتفع معنى التاريخ في وجداننا ، وان نرضى بتبعات ذلك كله دون أن نفقد حركة الذات المتقلة .. ان نتحرك ضمن اطار العالم بحرية وارادة كاملتين ، دون ان نخرج على العالم فننكر اصالتنا فيه .

الالتزام عهد مع العالم ووفاء له وليس خروجا عليه !

ولكن المثقف العربي ، كان دون مستوى الصلة بالعالم ، اذ كان محض اصداء وتهريج . انه لم يكن معاصرا للعالم ولا مشاركا في كبرى قضاياه ، بل كان مجرد رقيب من وراء تخومه يمضغ الحروف الكبيرة المهشمة ببلاهة ، وينظر الى العالم دون ان يقذف بنفسه في جرىء مغامراته .

والمثقف العربي ، مفكرا ، لم يكن يحس سوى الدعوة والترويج للآخرين ، دون ان يعي الاسباب والنتائج والاهداف ، بل دون ان يدرك الضرورات للدعوة والتهريج انه كائن لا يحسن تفسير اتفه مواقفه .

ان الحضارات الكبيرة تنتج عنها افكار كبيرة ، ولكن حركتنا الثقافية المعاصرة لم تستطع ان تنتج فكرة واحدة ، بل واكثر من ذلك انها عجزت عن ان تكون محض مرآة تعكس الآخرين .

ان الآداب والفنون عمليات وصف هادئة ، والفكر عملية تفسير هادف ، ولا يتم ذلك الا من خلال مبادرات شهمة صادقة ، والمثقف العربي بخصائصه الواهنة كان اعجز من ان يقوم بأية مبادرة من مبادرات الذات ... لقد كان محض تشويه ..

لقد كان محض تكرار مشوه !

محيي الدين اسماعيل